رسالة الطالب

[مهداة إلى طلاب العرب فى جميع الأقطار]

للأستاذ سعيد الأفغانى

« سألنى طالب فى طريقى كتاباً باسمى فقضيته فاذا هم يطلبون منى أن أجيب كتابة على هذا السؤال : ما هي السبل التى ترونها ناجعة فيتجه إليها الطلاب ليكونوا الجيل الجديد : عماد البلاد الحقيقى ؟ وقد آثرت نشره هنا فى مجلة العرب تعميما للفائدة ، وسلكت فى الاجابة طريق التبسيط والمثل ، متجافياً عن القواعد والنظريات ، وكل ما يحول دون فهم الطلاب لها الفهم الجيد »

أراد أحد كبار المحدثين أن يختصر الطريق على طالب يتخرّج عليه فى الحديث ، فحفّظه مدة عشر سنين أربعمائة ألف حديث بأسانيدها . فلما أتقن الطالب الحفظ وودع أستاذه قبل سفره إلى أهله ، لم ينس هذا الأستاذ أن يخبره : أن هذه الأحاديث أربعمائة الألف كلها موضوعة لا تصح . فأسقط فى يد الطالب وقال : « أضعتَ يا سيدى عمرى فى حفظ ما لا يصح . أساغ فى ذمتك إهدار عشر سنين هن أنضر العمر ؟ » . فابتسم الأستاذ ، وهدّأ من حزن تلميذه قائلاً : « لم يضع شيء ، الآن يا بنى أبصرت الطريق ، وصرت آمناً عليك كل تدليس ، مطمئناً إلى دخولك غمار هذا المجتمع الزاخر بالوضع والكذب والتلفيق ، ولن تعجزك بعد هذا معرفة الصحيح »

* * *

أعجبتنى طريقة هذا المحدث ، ووضحت لى حكمة الأصوليين القائلين : « درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة » . والخير فى أن نحكم الوسائل السلبية لكل أمر قبل العناية بوسائله الإيجابية ، وأن نعنى بدفع الضار أضعاف ما نعنى بجلب النافع . فهل من حرج على إذاً ، إن أنا عدلت عن بيان ما يجب لبناء الجيل الجديد إلى بيان أسباب إخفاقنا نحن أبناء الجيل الحاضر فلعل أول النجاح لأبناء المستقبل أن يتوقّوا ما ارتطم فيه مَن قبلهم

تسألون — أيها الطلاب — عن السبل الناجعة فى تكوين الجيل الجديد ؟ ألا فاعلموا أنها سبيل واحدة فقط ، خطوتها الأولى أن تتجنبوا ما تورطنا فيه نحن أبناء الجيل الحاضر ، من عبودية لكل تقليد ضار فى أخلاقنا وعاداتنا ونظمنا وتعليمنا . ولقد كان من أعظم الأسباب فى إخفاقنا أمور ثلاثة : خلق منحل تستره دعاوٍ عريضة من الكمال والفضيلة والوطنية ؛ وعلم مزيف كاذب خير منه الجهل الصريح ؛ وفقر فى وسائل كسب العيش من طرقه الشريفة ، هو أحد المظاهر فى فقدان الرجولة . لم يثبت لنا — ولا حكم للنادر — أثر نافع فى باب من أبواب الجد ، ولم نستطع أن نتحرر مما غرسوا فى أفكارنا فأكثرنا مقلدون ببغاوات .

فإن رأيتمونا بعد هذا — والعالم من حولنا يجدّ — أحلاس الملاهى والمقاصر والحانات ، مبددين فيها دم الشعب وثروته ، نصف نهارنا ومعظم ليلنا ، حاملين لأنظاركم أخنث الهيئات و (أميع الموضات) من تلميع وجوهنا وأحذيتنا وتصفيف شعورنا حتى إطالة أظافرنا ... إن رأيتمونا كذلك فاغفروا لنا هذه الإضاعة وهذا الانتحار ، فلعلنا ضحايا خطط خفية محكمة

لا تفقتونا على إهانة الخلق وتبديد الثروة وقتل الوقت ووأد الكرامة والرجولة ، فما ينتظرنا من مقت الله والوطن أكبر من مقتكم .

لا تقلدونا ، فإنكم مخلوقون لزمان غير زماننا ، لزمان صعب كله جد ، لا مكان فيه لغير المجدين العاملين ... وما كان زماننا لعباً ، ولكنا طبعنا على غرار واحد : أن نكون أطفالاً كباراً عالة فى كل شيء ، لا نهتف إلا بما يوحى إلينا ، معطلين عقولنا وضمائرنا ، أبواق دعايات نموها بالعلم أحياناً ، وبالنهوض بالوطن والدين أحياناً ، ثم نروغ إلى حيث تؤدى الحساب ونأخذ الأجر ونتلقى التعليمات لنعيد تمثيل الدور كرة أخرى

منا الذين ورثوا الثروات الطائلة ، ولم يكن آباؤهم قد أخذوهم بتثقيف ولا تهذيب اعتماداً على غناهم ، فلما آلت إليهم الثروة كانوا على جهل تام بطرق تنميتها وحفظها فوكلوا أمر تدبيرها إلى مرتزقين خانوهم ، وانصرفوا إلى حانتهم ومقامرهم ومحال رذائلهم فما زالوا بها حتى خرجوا عن آخر قرش منها ؛ وألحت الرذيلة ، ولم يكن بدٌ من كسب ما بعد أن ركبتهم الديون ، وكان هناك من يحتاج إلى أسماء أسرهم الفخمة فباعوه ضمائرهم ومصالح وطنهم وكانوا شر قدوة لمن دونهم

ومنا الذين آلت إليهم الضياع الواسعة والقرى الغنية ، فأنفوا المكوث فيها ومباشرة الأعمال الزراعية ، والزراعة لا تدر خيرها إلا على من يمنحها جهوده كلها ، وهؤلاء استكبروا أن يكونوا (فلاحين) كآبائهم وأرادوا أن يعيشوا (بكوات)

فما زالت زراعتهم تخسر حتى رهنوا القرى والضياع فى مصارف أجنبية ، تخلق بيدها الرهن ، ثم صاروا إلى مآل أرباب الثروات

ومنا الذين أرسلتهم أممهم ليأتوها بعلم الغرب وثقافة الغرب ومحاسن الغرب ؛ وأنفقت عليهم من أموال فقرائها ومساكينها ، ولم يمنعها فقرها من السخاء بالإنفاق ، رجاء أن يعوضوا عليها بعلمهم وخبرتهم أضعاف ما خسرت ... ثم رجعوا ... فإذا بعضهم عمى عن ذلك كله ، وأتانا بمفاسد الغرب وانحلال الغرب وأزياء الغرب وخموره ورقصه ... وأنا أقسم غير متحرج ، أنك لو طفت الغرب كله لما رأيت من يعكف على الملاهى والقمار والخمور عشر الوقت الذى يعكفونه ... وهؤلاء — كما تعلم — أرباب أعمال لو قاموا بواجباتها لما فرغ أحدهم لغير طعامه يلتهمه التهاماً ، ونومه يقطعه تقطيعاً

ومنا الذين أخفقوا فى أن يعرف لهم أثر ما فى علم أو أدب ، وأصر عليهم من منحهم الوظائف والشهادات أن يذكروا بشىء من الأشياء ، فراموا شهرة من أخصر طريق . وهل أخصر من أن ينكر امرؤ الوحى حتى يسمى بيننا مفكراً ، ولو جهل أين ولد الرسول ، وأين تقع مكة من الشام ؛ أو أن ينتقص النبي والخلفاء فيكون مؤرخاً ، ولو اعتقد أن فاتح بغداد هو عمر ابن الخطاب ؛ أو يشتم الدين فيكون حر الأفكار ... فيشتغل بعض الطلبة بالرد عليه فى الصحف ، فيشغل الناس بأمره ولو ساعة من نهار

ومنا الذين إذا كانوا فى وظيفة لم يفهموا ما يفهمه كل موظف فى العالم المتمدن من أن الموظف أجير لأرباب المعاملات ، إذا قصر فى الواجب عليه كان خائناً كالأجير الذى يسرق الوقت المأجور عليه ... فهم لا يفهمون الوظيفة إلا كرسياً ينتفخون عليه مصعرين خدودهم ، بأيديهم لفائفهم يدخنون ويتماجنون ، وأرباب المصالح وقوف يتألمون !

ومنا المتبطلون المأجورون لكل دعاية أجنبية : يروجون لها ويؤلفون لها الجمعيات والأحزاب ... فنا بحمد الله دعاة الفاشية والشيوعية والديمقراطية والدكتاتورية والإباحية ، وما شئت من مذاهب ونحل ودول ... كل ذلك يجد من يخدمه ويتعصب له وينافح عنه ؛ فإذا رحت تبحث عمن يخدم قضية بلاده خالصة ، رجعت خجلاً من ضآلة عددهم فى هذا الخضم الزاخر !

ومنا الذين إذا خرجوا من حيث يدرسون ، تحلقوا حلقاً فى حانات موبوءة ، وخيمة الهواء ، منتنة الريح ، إلى جانب مدارسهم ، على مرأى من طلبتهم ، يلقنونهم بذلك أقبح المثل وأحط الأخلاق وأبذأ الوقاحات ... حتى إذا كان للمعارف يوماً من الأيام وزير قوى الخلق غيور ذو نخوة ، وأذاع على موظفيه بلاغاً يحظر فيه على رجال التعليم ارتياد مباءات السقوط ، أمضى هؤلاء البلاغ ، وهرعوا من فورهم سراعاً إلى حاناتهم تلك ، فشربوا نخب البلاغ معربدين ممطعطين ، وأصابت فيهم الوقاحة المتسفلة أحط دركاتها

أجل ... أيها الأعزاء ... منا كل ذلك ، ومناشر من ذلك مما لا أستطيع التصريح به ... فإن كنتم لا تتوقعون من هذه الجراثيم الطفيلية خيراً ، لا لأنفسهم ولا لبلادهم ولا لأممهم ، فهذا هو الذى وقع ، وإن قدرتم أنهم يأتون على أمتن القواعد من أساسها ، فهذا ما أريد منهم ، وهذا ما عصف ببنائنا من قواعده . وإن عزوتم ما فى البلاد من كرامة وفضيلة إلى غمار الشعب وطلبته المعصومين وبعض خاصته المهذبين فأنتم على صواب

وإياكم أن تظنوا أن هذه السموم التى حلبناها — شاعرين أو غافلين — هى محصول وطنكم ، أو أن بلدكم مما ينبت هذه الرذائل ، وفى فطنتكم غنى عن التصريح ، وصدق الله العظيم[1]

* * *

وبعد ، فأحسبنى عددت — بأوجز لفظ — بعض الأسباب فى إخفاق جيلنا ، مما تسمح به الظروف ، وعسى أن ينفس الله الخناق فأعود ببعض التفصيل لما أجملت ؛ فإن وقاكم الله — أيها الطلاب — هذه الشرور ، وحمى جيلكم من هذه الآفات وتوابعها ، كونتم بأيسر سبيل عماد البلاد الحقيقى قوياً سليما

وإن كان لا بد من نصيحة إيجابية بعد ما تقدم ، فهى فى أن تأخذوا من مدنية الغرب أسباب القوة المادية كلها : فى العلم والتنظيم والصناعات ... أما غذاء أرواحكم وقانون أخلاقكم ، فانشدوهما فى تراثكم المجيد ... وحذار حذار أن تخدعوا عما مدت لصرفكم عنه الأحابيل ، وتنوعت المكائد ، ولطفت الحيل ، ودقت الأساليب ، وخفيت الحظوات ... ألا وهو : دينكم وثقافتكم ؛ عضوا عليهما بالنواجذ ، ففيهما — أيها الناشئون — كل قوتكم وعماد سلامتكم ، أفراداً وجماعات ...

لا تحيدوا عن سماحة القرآن وسمو الإسلام وتعاليمه قيد شعرة ، وكونوا فى ذلك رجالاً كل الرجال

(١) الآية : ٢٧ من سورة النمل